

التراث الثقافي اللامادي والمقدس

إيمان كاسي موسى
جامعة الجزائر 2, الجزائر

ملخص

يتوقف تصنيف التراث على مدى صلته بما يسمى بالمقدس, وتلعب الرموز دورا فبصليا في ذلك سواء كانت رموزا مجردة معنوية فقط أو مادية محسوسة. ولغرض معرفة ماهية التراث الذي نحوز, لا يتوقف الأمر على الجانبين الاجتماعي والأركيولوجي فقط وإنما يتعداهما إلى ذلك الانثروبولوجي والسيميولوجي وحتى اللساني. فكثيرا ما يحمل التراث أسرار بداخله, ويبقى على الباحثين التنقيب لبلوغ ذلك الجوهر الذي يجعل العوام يتصرفون حياله بصفة معينة أو بأخرى. كذلك, ففضية تصنيف التراث لم تأت عبثا وإنما لها محددات تجعلنا نعي الحدود المتواجدة بين التراث المادي والتراث اللامادي.

الكلمات المفتاحية: التراث الثقافي اللامادي, التراث الثقافي المادي, المقدس, المدنس, فولكلور.

Resumé :

La classification du patrimoine dépend de la façon de se rapporter au dit sacré. Les symboles jouent un rôle très important dans cela, que ce soit des symboles abstraits ou concrets. Afin de connaître l'essence de l'héritage ou bien du patrimoine qu'on a, ça ne dépend pas des aspects sociaux et archéologiques seuls; mais ça nécessite aussi la présence de l'anthropologie, la sémiologie et même la linguistique. Les secrets du patrimoine se trouvent dedans; ça reste aux chercheurs d'atteindre la vérité qu'il cache. En outre, la classification du patrimoine n'est pas venue en vain; mais, plutôt, elle consiste à connaître les limites entre le patrimoine matériel et le patrimoine immatériel.

يعتبر التراث مادة خصبة لمجالات عدة, لعل أبرزها تلك التي تبحث في ماهيته بالنظر إلى الزخم الثقافي الذي يحويه, وكذلك بالنظر إلى السمة التي يتخذها المقدس في إحدى جوانبه, ألا وهو التراث الثقافي اللامادي المترامي الأطراف والمتجلى بصفة أو بأخرى في مظاهرنا الحياتية. فهو ذاك الذي نحن بصدد التعاطي معه في تعاملاتنا

اليومية وإنما بكيفية تغيب الطابع الأنثروبولوجي ذي الصبغة الاعتقادية الروحانية التي اكتنفته قديما لاسيما فيما يتعدى الطابع الشفهي له، وبل تلبس جزءا يسيرا منه حلّة القطع المعاصرة التي حلت محله، مما يخيل للبعض أنّ ماهيته تقتصر على كونه مجرد شيء أو مادة أو حجر، مثله مثل عديد أدوات الزينة المعاصرة المعتمدة حديثا! أو قد يحلّ لنا أن نعتبره تراثا ماديا نظرا لطبيعته الخارجية وفقط. وحرمانه من روحه وحصره في طابعه الظاهري قولاً، باعتباره مادة لا غير، يجعلنا تارة نساوي بينه وبين القطع المعاصرة التي تتولّى المصانع صنعها بأشكال مغايرة والتي لا دخل حتى ليد الإنسان فيها، وتارة أخرى نغفل عن حدود التراث المادي الذي له معاملة الخاصة هو الآخر. ولهذا وذاك نلاحظ أنّ منظّمة اليونسكو شددت على ضرورة التعريف بالتراث اللامادي في اتفاقيّاتها المبرمة في 17 أكتوبر 2003 بباريس بحيث تقول في مستهلّها:

"يقصد بعبارة "التراث الثقافي اللامادي" الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات تعتبرها الجماعات والمجموعات وأحيانا الأفراد جزءا من تراثها الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلا عن جيل تبذره الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وماريخها، وهو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريّتها ويعزز من ثمّ احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية" (1).

وطبعا يسوقنا الأمر، بعد الذي أتى ذكره، إلى التساؤل عن مجال التراث المادي الذي يشمل بدوره بعضا من المباني والأماكن التاريخية والآثار التي تشكّل لُقى متميّزة بالنسبة لمعايير علم الآثار والهندسة المعمارية والعلوم والتكنولوجيا فيما يخصّ ثقافة بعينها (2). وكأمثلة عن معاملة، نجد المباني الحربية والمدنية كالحصون والقلاع والقصور والأسوار والسدود. كما نجد أيضا التراث الطبيعي الذي يشتمل على التشكيلات الجيولوجية والمواقع الطبيعية سيّما تلك التي تعكس الجمال الطبيعي الخارق للعادة، عدا على أنّها تتألف كمواطن للأجناس البشرية والحيوانية والنباتية بما فيها من سواحل البحار والسلاسل الجبلية والكتبان الرملية.

وبعد تلك اللّمحة التي خصّصناها للتراث اللامادي في مستهلّ الحديث، هذا الذي يعتبر الحفاظ عليه بمثابة حماية للهويّات الثقافية، وبالتالي للتنوع الثقافي للبشرية، يقتضي الأمر التساؤل عن المقاييس التي جعلت أصحاب الاختصاص يصنّفونه على ذلك النحو، والتي نستطيع إجمالها بكلّ بساطة بمسألة ارتباطه بالضرورة بالمقدس.

فالمقدس يقترن دوما بصفة التجلّي، كما أنّ صورته تظلّ مخيالية ومجرّدة بأذهاننا وإنّما كثيرا ما تتخذ أشكالا معينة تضمن تلك الصلة الرمزية به، أي بذلك المقدّس، ممّا يحقّق التواصل الدائم معه. وللإشارة، فإنّ إدراك هذه

الصفة الرمزية يتضح أكثر في الديانات التوحيدية، كون أن في بعض الديانات يُعبد الشيء أو الحيوان لذاته وليس كرمز.

ولما نقول الرمزية، يجزأ الأمر إلى الحديث عن الأشكال والتعابير التي يتخذها التراث اللامادي سواء في الطقوس والاحتفالات الممثلة بالرقص مثلاً أو في مختلف الممارسات الشعبية المتوارثة التي تحمل رموزاً ضمنية حتى في الحركات، وكذا تلك العينية في الخزف والزراي التقليدية والوشم والحلي التقليدية والنقوش الصخرية. كما يجدر التنويه إلى وجود بعض من الآلات الموسيقية التقليدية التي ذاع صيتها إلى العالمية، ومثالها آلة "إمزاد" التي تم ضمها إلى لائحة التراث الثقافي اللامادي العالمي للإنسانية سنة 2008. وتجدر الإشارة إلى أن المثال المذكور تراث مشترك بين طوارق الجزائر وشمالي مالي والنيجر(3)، وتعزف النساء عليه بمصاحبة أشعار أو أغان شعبية يؤديها الرجال في المناسبات الاحتفالية، الأمر الذي يرجع مرده حسب الاعتقاد القديم إلى إبعاد الأرواح الشريرة وتخفيف آلام المرضى النفسانيين(4).

ومن بين الأمثلة المذكورة سلفاً، وتطرقاً إلى أبرز ما يمثلها في شمال إفريقيا، نجد تلك الرموز الأمازيغية وغيرها من التي تعبر تارة عن معبودات الإنسان القديم وتارة أخرى على طبيعة محيطه الذي لطالما ربطته به صلة متينة. فإنسان الصحراء كثيراً ما يوظف في ممارساته وقطعه الحرفية الشعبية رموزاً لعقارب وثعابين، بما في ذلك النماذج التي اشترك فيها مع غيره كتوظيف رمز الخامسة وشكل العين لإبعاد الحسد حسب اعتقاداته القديمة، وكذا رمز الخصوبة المنتشر بشكل لافت والذي يعبر عن فكر إنسان حقبة زمنية خلت.

وإنما ونتيجة لأشكال التثاقف، وربما حتى الاستيعاب الثقافي الذي حدث بغية مسح الهوية الوطنية ببلادنا، على سبيل المثال لا الحصر، تم حذف رموز واستحداث أخرى دخيلة عن ثقافتنا وإنما عينها التي تحدث مع الزمن ذلكما الزخم والثراء الثقافي الداعيين إلى البحث والتنقيب، فتتوارث تلك الأشكال لتلبس حلة العادات والتقاليد والممارسات الشعبية ليرسو بها الأمر على شكل فولكلور، وبذلك تبقى شاهدة على تاريخ مضي وإنما لم ينقض ! وربما للسبب ذاته نجد دوركايم *Emile Durkheim* في كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية

« *Les formes élémentaires de la vie religieuse* » يعتمد إلى دراسة الأشكال الأولية باعتبارها المهاد لفهم أي معتقد كان بغير أن تشوبه شائبة، وكذلك لكونه يعتبرها العنصر الذي يضمن التماسك الاجتماعي، وهذا بدءاً بنموذج الطوطم. فعلاوة على أن الدين حسب دوركايم يعتبر حاملاً للمقدس نجده بدوره حباه، أي ذلك المقدس، بمنزلة تعلو وتحمي البنى الاجتماعية لأي مجتمع كان، فنجدها تلعب دور الحارس وبالتالي

بكل بساطة عنصر الخير في مواجهة الشر. ومن هنا تتضح الجدلية التي كانت تطبع فكر الانسان القديم الجانح إلى البحث عن أشكال الدفء والأمان لمجابهة قوى الشر (5).

ولأن الرموز التي نتعاطى معها في حياتنا اليومية تحمل خبايا قد لا ندركها، تظل بالضرورة كنوزا دفينه تتخذ أشكالا أخرى مع الوقت لاسيما في مجال السيمولوجيا أين تتغير العلاقة بين الدال والمدلول بصفة دورية وانصياعا لمقتضيات الظروف وأحداث التاريخ الدائم الحركية. إنما بالاستعانة بمجالات أخرى كالأنثروبولوجيا والسوسولوجيا واللسانيات، كثيرا ما تطفو إلى الأفق جملة مؤشرات تسير جنبا إلى جنب مع سابقاتها في الذكر لتسوق فكر الباحث وتنبهه إلى أمور قد يسميها في بادئ الأمر صدفا، ومثال ذلك تسمية الرمز

Le symbole/le motif في بعض اللهجات الأمازيغية بـ "أزمول" أو "تقدّيست"، ذاته الذي يحمل دلالة النموذج !

وتبعا للرموز المستعملة، نجد أنّ الانسان القديم لم يقتصر في تعابيره على المقدس وإنما ربط بينه وبين نظيره المدنس في قالب جدلي دائم يظل يطبعه التكرار سواء في أشكال الوشم أو تلك الموجودة بالزراعي أو الحلي وكذا مثيلاتها البارزة في المصنوعات الخزفية أيضا.

ومن بين الذين خصّوا النظريات الدينية ذات العلاقة بالرمزية بالذكر نجد كامي تارو *Camille Tarot* الذي تطرّق في كتابه الموسوم بـ « *Le symbolique et le sacré, théories de la religion* » إلى أعمال مفكرين عدّة ممن سبقوه أمثال دوركايم *Emile Durkheim*, مرسيل موس *Marcel Mauss*, مرسيا إلياد *Mircea Eliade*, كلود ليفي ستراوس *Claude Lévi-Strauss*, رونييه جيرار *René Girard* وكذا بيار بورديو *Pierre Bourdieu*. فمن هؤلاء من اهتمّ بالمقدس والرمزية بين مظاهر الرعب والتاريخ (مرسيا إلياد)، كما يوجد من كانت له وجهة نظر معينة تقول بأن العنف هو مصدر الرمزية والمقدس (رونييه جيرار)، ومنهم من انصبّ فكره حول أشكال هيمنة الرمزية في الدين وهو بيار بورديو.

وللخُلوص إلى أثر الرمزية الدينية بشكل عامّ ومختصر في الآن ذاته، تشدنا مقدّمة صغيرة وردت في مستهلّ مقال منشور سنة 2011 بمجلة *Dolls of India* تقول:

“Religious symbolism implies the use of unique symbols by a particular religion, that describe anything pertaining to its culture, including archetypes, events, natural phenomena or even the art that evolved in that land over a period of time. All religions of the world, irrespective of how ancient or modern they are, use symbols to help create a resonant ethos, which in turn, reflects the moral values, teachings and culture of that society. Further, adhering

to this religious symbolism also helps foster solidarity among the followers, keeping them secure as a unit, helping them focus better on their object of worship". (6)

هذا المقطع الذي يسعنا ترجمته كالتالي: (تنطوي الرمزية الدينية على استخدام رموز فريدة متعلقة بديانة بعينها، تصف أي شيء يتعلق بثقافتها بما في ذلك الأحداث والظواهر الطبيعية وحتى الفن الذي نشأ في أرض ما على مدى فترة من الزمن. كما نجد أن ديانات العالم، وبغض النظر عن جذورها أو أقدميتها، تستخدم الرموز لخلق روح مشتركة تعكس بدورها القيم والتعاليم الأخلاقية، وبالتالي ثقافة المجتمع الحامل لها. وعلاوة على ذلك، يساعد الالتزام بالرمزية الدينية على تشجيع التضامن وضمأن وحدة الجماعة مما يسمح بتركيز أمثل على أشكال العبادة). وكختام لموضوعنا، نتوصل إلى أن هناك صلة لصيقة جداً بين التراث اللامادي والمقدس، تلك التي تتجلى على شكل رموز سواء أكانت شفوية-بصرية أم كتابية، ذاتها التي تحمل الكثير من علامات الاستفهام وتحتل وتستدعي التنقيب أيضاً. فكلّ يعزوها إلى شقّ مفاهيمي معين وإنما تظلّ رغم ذلك متشبّثة بالقلب الديني الذي تحمله منذ فجر التاريخ.

المراجع:

- 1 - "موسيقى الطوارق... الوجه الآخر للصحراء في ليبيا"، موقع شبكة المحيط العربية الإلكتروني، (<http://www.moheet.com>), نشر في 30 مارس 2014، شوهدي في مارس 2016.
- 2 - Camille tarot, « *Le symbolique et le sacré: théories de la religion* », éditions La Découverte, Paris 8, Avril 2008.
- 3 - Emile Durkheim, **Les formes élémentaires de la vie religieuse**, Presse Universitaires de France, Paris, 5^{ème} édit, 2003.
- 4 - Priya Viswanathan, "Symbolism in religions around the world", Dolls of India, (<http://www.dollsofindia.com/library/religious-symbols/>).
- 5- مكتب اليونسكو بالقاهرة (<http://www.unesco.org/new/ar/cairo/culture>), شوهدي في مارس 2016.
- 6- مكتب اليونسكو بالقاهرة، الصفحة الخاصة بالتراث الثقافي (<http://www.unesco.org/new/ar/cairo/culture/tangible-cultural-heritage>), شوهدي في مارس 2016.
- 7- صفحة الإمزاد بالموقع الرسمي لليونسكو (www.unesco.org/culture/Ich/Index.php?lg=ar&pg=00011&RL=00891), شوهدي في مارس 2016.